بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة 1-7-2011م **الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال**

((سراج الملوك))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله.

أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته وأستفتح بالذي هو خير :

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]

وقال جل من قائل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]

قال صلى الله عليه وسلم: ((**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سَلَك الله به طريقاً من طرق الجنة**)) [أبو داود والترمذي]

قال سيدنا علي رضي الله عنه لكُمَيْل بن زياد: (يا كُمَيْل، إن القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للعلم. احفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهَمَج رَعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا منه إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والعلم يزكو بالإنفاق، والمال تُنقِصه النفقة، والعلم حاكم والمال محكوم، ومحبة العلم دين يدان الله تعالى به، يكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأُحدُوثة بعد وفاته.

مات خَزَنَة الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أشخاصهم مفقودة، وأمثالهم في القلب موجودة).

عنوان خطبة اليوم:

(سراج الملوك).

● **أيها الإخوة:**

يتألف الفقه الإسلامي-كما مر في الخطبة الماضية- من خمسة أقسام كبيرة: (العبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والقضاء، والسياسة الشرعية).

وفي هذا الباب الخامس الأخير مباحث مهمة يتناولها علماء الشريعة، متعلقة بالفقه السياسي في الإسلام.

ولهذا الباب مصادر ومراجع كثيرة أحببتُ أن أطلِعكم على شيء منها بأن أقدّم بين أيديكم تقريراً في الخطبة عن واحد من هذه المصادر لنفيد منه ويفيد مَن يستمع إلى هذه الخطبة علماً وعملاً.

اسم الكتاب : ((**سراج الملوك**)) .

اسم المؤلف: أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرطوشي، من وفيات عام (520هـ).

جاء الكتاب من دون تحقيق في أكثر من خمسمائة صحيفة.

قال الذهبي في "سير أعلام النبلاء" عن مؤلف الكتاب:

(الإمام العلاَّمة، القدوة الزاهد، شيخ المالكية، أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسي الطُّرطوشي الفقيه، عالم الإسكندرية، وطُرطوشة: هي آخر حدٍّ المسلمين من شمالي الأندلس، وحكى بعض العلماء أن الطُّرطوشي تخرج به نحو من مئتي فقيه مفتي. وقد ألّف كتابه "سراج الملوك" للوزير المصري المأمون بن البطائحي، وكتب له يقول:

الناس يهدون على قدرهم ... وأنا أهدي على قدري

يهدون ما يفنى وأهدي الذي ... يبقى على الأيام والدهر

جمع فيه طرفاً من سير الأنبياء، ومواعظ العلماء، وحكمة الحكماء، ونوادر الخلفاء، ورتَّبه ترتيباً أنيقاً، قلّما سمع به ملك إلا استَكتَبه، ولا وزير إلا استصحَبَه، يستغني الحكيم بمدارسته عن مباحثة الحكماء، والملك عن مشاورة الوزراء.

جعل الطُّرطوشي كتابه أربعة وستين باباً، ذكر في الباب الأول: مواعظ الملوك، وفي الباب الثاني: مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والوزراء والسلاطين، والباب الثالث: في الولاة والقضاة، والرابع: في فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا، وتكلم في باب عن خصال وَرَدَ الشرع بها فيها نظام الملك والدولة، وتكلم في باب عن الخصال المحمودة في السلطان، وتكلم في باب عن خصالٍ زَعَم لملوك أنها هدمت دولتهم وأزالت سلطانهم..

وتكلّم عن الوزراء وصفاتهم، وعن المشاورة والنصيحة، والحلم وكتمان السِّرّ، وتكلم في باب عن الخصلة التي فيها ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الأمور وتغيُّر الوجوه، وتحدث عن صحبة السلطان في باب، وعن سيرة السلطان في بيت المال، وعن هدايا العمّال والرِّشا، وعن الحروب وحيلها وتدبيرها، وختم بباب يشتمل على حِكَم وأحاديث منثورة.

وها أنا أقرأ عليكم شيئاً مما أورده في البابين الحادي عشر والثاني عشر:

الباب الحادي عشر، وعَنْوَنه: (**في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان، ولا ثبات له دونها**)، قال:

(فأول الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذي هو قِوام الملك، ودوام الدول، ورأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصطلاحية –مراده: سواء أكانت الدولة دينية أم مدنية–.

واعلم أيها الوالي أن الملك بمنزلة رجل: فرأسه أنت، وقلبه وزيرك، ويداه أعوانك، ورجلاه رعيتك، وروحه عدلك، وما بقي جسد بلا روح. وإذا أردت ذروة العدل فاعلم أن الرعية ثلاثة أنفس: كبير وصغير ووسط، فاجعل كبيرهم أباً، ووسطهم أخاً، وصغيرهم ولداً. فبرّ أباك وأكرم أخاك وارحم ولدك...

واعلم أن عدل الملك يوجب الاجتماع عليه، وجوره يوجب الافتراق عنه...، وبعيد أن يبقى سلطان أو تستقيم رعيته في حال إيمان أو كفر بلا عدل قائم ولا ترتيب للأمور ثابت، فذلك مما لا يمكن ولا يجوز...

فاجعل العدل سياستك تسقط عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة، وتقوم لك جميع الشرائط التي تقوم بها المملكة...

وقّع المأمون في قضية متظلم من أحد ولاته عمرو بن مسعدة: يا عمرو، عمّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها...

وكتب عامل حمص إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت إلى الإصلاح، فكتب إليه عمر: حصّنها بالعدل ونقِّ طرقها من الجور، والسلام.

وقال كسرى: اتفقت ملوك العجم على أن الرعية لا يصلحها إلا العدل. وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل الملوك الذين بعدلهم يعدل مَن دونهم.

ولقد بلغَنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم، فأصبح مسترجعاً مهتماً بأمور المظلومين وأنه لا يسمع استغاثتهم، فأمر مناديه أن لا يلبس أحد في مملكته ثوباً أحمر إلا مظلوم، وقال: لئن مُنِعتُ سمعي لم أُمنع بصري، فكان كلُّ من ظُلِم لبس ثوباً أحمر ووقف تحت قصره، فيكشف عن ظلامته).

هذا شيء مما ذكره الطُّرطوشي في كتابه "سراج الملوك" في الباب الحادي عشر: (بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان).

وأختم بمختارات من الباب الثاني عشر، وعَنْونه: (**في التنصيص على الخصال التي زعم الملوك أنها هدمَت دولتهم وأزالت سلطانهم**)، قال:

(أيها الملك، احرص كلَّ الحرص أن تكون خبيراً بأمور عمّالك، فإن المسيء يفرق من خبرتك به قبل أن تصيبه عقوبتك، والمحسن يستبشر بعلمك به قبل أن يأتيه ثوابك.

وقال أبو جعفر المنصور: ما زال أمر بني أمية مستقيماً حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همَّتهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصداً للشهوات وإيثاراً للذات، والدخول في معاصي الله تعالى وأمناً لمكرِهِ، فسلَبهم الله تعالى العز ونقل عنهم النعمة...

وسُئل بُزرجمهر: ما بال ملك بني ساسان صار إلى ما صار إليه، بعدما كان فيه من قوة السلطان وشدة الأركان؟ فقال: ذلك لأنهم قلّدوا كبار الأعمال صغار الرجال.

وسُئل بعض الملوك بعد أن سُلبوا المملكة: ما الذي سلب عزكم وهدم ملككم؟ فقال: شغلَتنا لذّاتنا عن التفرغ لمهماتنا، ووثقنا بكفاتنا، فآثروا مرافقهم علينا، وظَلَم عمالُنا رعيتنا فانفسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا...، وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الأخبار عنا.

وقالت الحكماء: أسرع الخصال في هدم السلطان إظهار المحاباة لقوم دون قوم، والميل إلى قبيلة دون قبيلة.

وقال أحد الملوك: من زوال السلطان تقريب من ينبغي أن يباعَد، ومباعدة من ينبغي أن يُقرَّب، وحينئذ حان أوان انصداع الملك.

أيها الإخوة:

هذا تقرير مختصر سمح به الوقت للتعريف بواحد من كتب السياسة الشرعية؛ كتاب "سراج الملوك" لأبي بكر الطُّرطوشي. عسى الله أن ينفعنا بما سمعنا جميعاً.

قال أبو جعفر المنصور: ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة لا يكون على بابي أعف منهم. قيل: من هم يا أمير المؤمنين؟ قال: هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، فإنْ نقَصَ قائمة واحدة عابه:

أحدهم: قاض لا تأخذه في الله لومة لائم.

والآخر: صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي.

والآخر: صاحب خراج يستقضي ولا يظلم الرعية، فإني غني عن ظلمهم.

ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه آه؟ قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

والحمد لله رب العالمين